سورة فاطر — سورة الملائكة

هى مكية نزلت بعد سورة الفرقان وآيها خمس وأربعون .

ومناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقتها هلاك المشركين وإنزالهم منازل العذاب — لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

شرح المفردات

فطر الشىء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أى وسائط بينه و بين أنبيائه يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أى اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة.

الإيضاح

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى له سبحانه الشكر فقد أبدع خلق السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق وأحكم تدبيرهما على أتم نظام ، كما قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جاعل الملائكة وسائط بينه و بين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته ـ ذوى أجنحة إما اثنين اثنين، و إما ثلاثة ثلاثة ، و إما أربعة أربعة .

والأجنحة فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وكثرتها تومئ إلى السرعة ، وهى فى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربهم إلى أنبيائه .

وفى هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى على حسب استعدادهم الروحى. وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود «أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح » وفى هذا رمز إلى قوة استعداده الروحى وقربه من الملإ الأعلى وسرعة تنفيذه ما يؤمر به .

(يزيد فى الخلق مايشاء) أى يزيد فى خلق الأجنحة مايشاء، كما يزيد فى أرجل الحيوان ما يشاء حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحيانا ، وهكذا يزيد فى تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل.

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

(إن الله على كل شىء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية ، فلا يمتنع عليه فعل شىء أراده ، لما له من القدرة والسلطان على كل شىء .

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) .

شرح المفردات

يفتح : يعطى ، ورحمة : أى نعمة حسية كانت أو معنوية كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لايحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة ـ أيد ذلك بما يشاهده كل أحد فى نفسه من الضيق حينا والسعة حينا آخر ، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد، وجلب النعمة لو أراد .

الإيضاح

مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه ، فما يعطى من خير فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه ، وأى خير يمسكه فلا يبسطه ولا يفتحه لهم فاتح ، لأن الأمور كلها بيده ، ومنه البذل والعطاء ، والمنع والإمساك .

وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التى منها الفتح والإمساك ، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وفى الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم والتوجه إليه فى قضاء حاجهم والتوكل عليه فى جميع مآربهم ، والإعراض عما سواه من جميع خلقه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ » .

روى أحمد عن المغيرة بن شعبة أنه قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » .

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ،

أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتُهن فما أبالى ما أُصبح عليه وأمسى : (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده . (٢) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضـــله . (٣) سيجعل الله بعد عسر يسرا . (٤) وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .

يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) .

شرح المفردات

أنى تؤفكون : أى من أين تصرفون عن توحيد الخالق مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق ، وتشركون المنحوت : بمن له الملكوت .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد فى نفسه ـ أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر عليها .

الإيضاح

أيها الناس راعوا نعم الله واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها ، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة فهو الذى بيده أرزاقكم وأقواتكم ، فإلى أىّ وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ، ووضح السبيل .

والخلاصة — احفظوا نعم الله وأدوا حقها ولا تشركوا به سواه من الأصنام والأوثان ، بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأصل الأول وهو التوحيد — ثنى بذكر الأصل الثانى وهو الرسالة وسلى رسوله عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل فقد كُذِّب كثير منهم قبله ، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم ؛ ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث والنشور مع بيان أنه حق لاشك فيه ، وأنه لاينبغى أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان فإنه عدو لبنى آدم ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التى توصلهم إلى عذاب النار وبئس القرار .

الإيضاح

(وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور) أى وإن استمر قومك على تكذيبك فيما بلغته إليهم من الحق المبين ، بعد أن أقمت لهم الحجج وضربت الأمثال ، فتأسّ بمن سبقك من الرسل فقد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .

وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب .

ثم ذكر أن البعث آت لاريب فيه فقال :

(يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لاشك فيه ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فيذهلكم التمتع بمتاعها ، و يلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعا لوساوس الشيطان .

والخلاصة — إنكم لاتغتروا بالحياة الدنيا وتتركوا فعل ما أمرتم به وتفعلوا ما نهيتم عنه .

ثم ذكر العلة فى عدم الاغترار بالشيطان فقال :

(إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى إن الشيطان معلن عداوته لكم بوسوسته ، فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به .

ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال :

(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أى ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإلقاؤهم فى العذاب الدائم من حيث لايشعرون .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

شرح المفردات

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى الغم على ما فات والندم عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار ـ ذكر هنا أن حزب الشيطان له العذاب الشديد ، وأن حزب الله له المغفرة والأجر الكبير ، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله على حسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية ، أو تدسيتها وارتكابها الإجرام والمعاصى ، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم لوساوس الشيطان ، والله عليم بحالهم وسيجازيهم بما يستحقون .

أخرج جويبر عن الضحاك أن الآية نزلت فى عمر رضى الله عنه وأبى جهل حيث هدى الله عمر وأضل أبا جهل .

الإيضاح

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب من الله شديد فى النار، من جزاء كفرهم وإجابتهم دعوة الشيطان واتباعهم خطواته .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أى والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه ـ لهم مغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير كفاء ما ملئوا به قلوبهم من عامر الإيمان ، وأخبتوا إلى ربهم بصالح الأعمال.

ثم بين البعد ما بين الفريقين واختلاف حال الفئتين فقال :

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) أى أفمن حسن له الشيطان سيئ الأعمال من معاصى الله والكفر به وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان ، فحسب سيئ ذلك حسنا ، وظن قبيحه جميلا ، أليك فيه حيلة ؟

ثم ذكر السبب فى اتجاه كل من الفريقين إلى ما اتجه إليه فقال :

(فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى فإن ذلك الإضلال بمشيئة الله تعالى التابعة لعلمه باستعداد النفوس للخير وللشر ، وقد تقدم ذلك غير مرة فلا حاجة إلى الإطناب فيه .

ثم أتى بما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تأسف على عدم إيمانهم و إجابتهم دعوتك ، فإن الله حكيم فى قدره ، فهو يضل من يضل من عباده و يهدى من يشاء ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس إما بإخباتها إلى ربها و إنابتها إليه وميلها إلى صالح العمل ، و إما بتدسيتها وحبها لاجتراح السيئات وارتكاب الموبقات ، ونحو الآية قوله : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم هدد الكافرين على قبيح أعمالهم فقال :

(إن الله عليم بما يصنعون) أى إن الله عليم بما يصنعون من القبائح فيجازيهم عليه بما يستحقون ، وفى هذا وعيد تنهد منه الجبال وتندك منه الأرض دكا .

وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

أرسل : أى أطلق وأوجد من العدم ، تثير : أى تحرك ، مَيْت وميّت بمعنى قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بمَيْت إنما الميْت ميّت الأحياء
إنما الميْت من يعيش كئيبا كاسفاً باله قليلَ الرجاء

ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذى مات، والميت بالتشديد، والمائت هو الذى لم يمت بعد وأنشد :

ومن يك ذا روح فذلك ميّت وما الميْت إلا من إلى القبر يحمل

والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر الله الميت وأنشره ، أى أحياه، العزة : أى الشرف والمَنَعَة من قولهم أرض عزاز : أى صلبة ، والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى الله قبوله ، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أى يقبله ، يمكرون : أى يعملون على وجه المكر والخديعة ، والسيئات : المكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين فى أعمالهم يوهمونهم أنهم فى طاعة الله ، يبور : أى يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجا : أى أصنافا ذكرانا وإناثا ، يعمر من معمر : أى يمد فى عمر أحد ، فى كتاب : أى فى صحيفة المرء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم فى ذلك اليوم ـ أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لاريب فيه ، وضرب المثل الذى يدل على تحققه لامحالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ؛ ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد فى الآفاق من دلائل القدرة ، ذكر دليلا عليه بما يرى فى الأنفس من اختلاف

أطوارها ، فقد كانت ترابا ثم نطفة ثم وضعت فى الأرحام إلى أن صارت بشرا سويا ، ومنها ما يعد فى عمرها ، ومنها ما يُخْتَرَم قبل ذلك ، كما تدل عليه المشاهدة ، وكل ذلك يسير على الله .

الإيضاح

(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى أفلا تتدبرون وتعقلون فتعلموا أن من أوجد الرياح بعد أن لم تكن ثم جعلها تسير السحاب الثقال فتنزل منها الغيث إلى الأرض الْجُرُز التى لا نبات بها فتحيا بعد أن كانت ميتة وتهتز وتربو وتنبت كل زوج بهيج — أفليس ذلك القادر الحكيم الذى أحيا ميت الأرض بقادر على أن يحيى الموتى بعد بلاها ، و بعد أن كانت عظاما نخرة ؟ إنه على كل شىء قدير .

وعن أبى رزين قال : «قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك مُمْحِلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم فكذلك يحيى الله الموتى» .

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أى من كان يود أن يكون عزيزا فى الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإن بها تنال العزة إذ لله العزة فيهما جميعا .

(إليه يصعد الكلم الطيب) أى إنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

(والعمل الصالح يرفعه) صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه ، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب ، فالصلاة والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراءاة للناس لا يتقبلها الله كما قال سبحانه « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح : أداء

فرائضه . وعن الحسن وقتادة : لايقبل الله قولا إلا بعمل ، من قال وأحسن قبل الله منه .

والخلاصة — إن القول إذا لم يصحبه عمل لايقبل ، وأنشدوا :

لاترضَ من رجلٍ حلاوةَ قوله حتى يُزَيِّن ما يقولُ فِعال

وإذا وزنتَ فعاله بمقاله فتوازنا فإخاءُ ذاك جمال

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل كثَريدٍ بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .

و بعد أن ذكر أن العمل الصالح يصعد إلى الله، ذكر أن المرائين لايتقبل منهم عمل ، ولهم عذاب شديد عند ربهم .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) أى والذين يمكرون المكر السيء بالمسلمين بأن يعملوا كل ما يكون سببا فى ضعف الإسلام والحط من قدره والإفساد بين بينهم حتى يمّحى أثره من الوجود كما فعلت قريش فى دار الندوة ، إذ تدارست الرأى فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة لهم العذاب الشديد يوم القيامة .

(ومكر أولئك هو يبور) أى ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولى البصائر ، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيرا فخير و إن شرا فشر ، فالمرائى لايروج أمره ولا يستمر إلا على غبىّ ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف عن قريب ، وعالم الغيب لاتخفى عليه خافية .

ثم ذكر دليلا على صحة البعث بما يرى فى الأنفس فقال :

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) أى والله خلق الناس من النطفة، والنطفة من الغذاء، والغذاء ينتهى آخرا إلى الماء والتراب ، فهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافا ذكرانا و إناثا بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان يستويان عددا ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لايتم

إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لايخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى صاحبة السلطان فى هذا العالم ، لم يتم التوازن فى العدد بين الزوجين فيفنى الإنسان والحيوان .

ونحو الآية قوله : « اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

(وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ماقدر له ، لايزيد على ذلك ولاينقص عنه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له فى الكتاب الذى كتب له ، وذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار فى جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن ذلك النظام البديع للعالم ـ هيّن على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شىء عليه .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ: هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

شرح المفردات

عذب : أى حلو لذيذ طعمه ، فرات : أى كاسر للعطش مزيل له ، سائغ : أى سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس ، أجاج : أى شديد الملوحة والحرارة ، حلية : أى لؤلؤا ومرجانا ، مواخر : أى شاقات الماء حين جريانها ، يولج : أى يدخل ، والقطمير : لفافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ، يكفرون بشرككم : أى يجحدون بإشراككم إياهم وعبادتكم لهم ، ولا ينبئك مثل خبير : أى ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها ــ أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى فى الأقاليم والأمصار ، والبرارى والقفار ، يُسقَى منه الإنسان والحيوان وينبت النبات الذى فيه غذاء لها ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحما طريًّا فيه لذة للآكلين ، وهذان ليل ونهار ، ضياء وظلام ، يدخل أحدهما فى الآخر فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا فى قصر ذاك فيعتدلان ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء ، وسخر الشمس والقمر والنجوم

الثوابت والسيارات ، كل يجرى بمقدار معين وعلى نهج ثابت لايتغير ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شَرْوَى نقير ولا يسمعون لكم دعاء ، ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم ، ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

الإيضاح

(وما يستوى البحران هـذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) أى وما يعتدل البحران فيستويان : أحدهما عذب سائغ شرابه يجرى فى الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار على حسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار . وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

(ومن كل تأكلون لحما طريا) أى ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطرى فضلا من الله ومنة .

(وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى وتستخرجون الدرّ والمرجان من الملح الأجاج ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن فى كل منها تشقها شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر فتدفع عنكم المَخْمَصَة وتسدّ العَوَز .

لعلكم تشكرونه سبحانه على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح فى تلك العوالم الشاسعة — أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر فقال :

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون

النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار فى الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا فى الليل وتبتغوا فضلا منه فى النهار ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم لايقصران دونه ولا يتعدیانه ، وهو يوم القيامة .

(ذلكم الله ربكم له الملك) أى ذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذى لاتصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم الذى له الملك التام والسلطان المطلق والقهر والجبروت ، وكل من فى السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

(والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أى والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لايملكون شيئا ولو كان حقيرا ، بل هم ملك لخالق القوى والقدر.

ثم أكد ما سلف مبينا حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله :

(إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى وإن تدعوا هذه الآلهة من دون الله لاتسمع لكم دعاء ، لأنهم جماد لا أرواح لهم ، ولو سمعوا ما قدروا أن ينفعوكم ويستجيبوا لشىء مما تطلبون .

والخلاصة — كيف تعبدون من لاينفع ولا يضر وتدعون من بيده النفع والضر، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون .

وبعد أن نفى المقتضى للعبادة ، وهو مجىء النفع والضر من قِبَلهم ، ذكر المانع من عبادتهم وهو كفرهم بهم يوم القيامة فقال :

(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى وهم يوم القيامة يتبرءون منكم ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زينته لكم شياطينكم.

ونحو الآية قوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله :

(ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم ، وهو الله الذى لايخفى عليه شىء كان ، أو سيكون فى مستأنف الزمان .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

شرح المفردات

ولا تزر : أى ولا تحمل ، وازرة : أى نفس آثمة ، وزر أخرى : أى إثم نفس أخرى ، والمثقلة : النفس التى أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أى ذا قرابة من الداعى ، بالغيب : أى غائبا عنهم ، وتزكى : أى تطهر من دنس الأوزار والذنوب ، والمصير : المرجع والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لايملك شيئا ولا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا ـ أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة له ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، فهو الذى تجب عبادته وحده ، لأن النفع والضر بيده لاشريك له ؛ ثم بين أنه يوم القيامة

لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا تستطيع دفع ضر عنها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله ويخاف عقابه ، وأن من يتزكى فإنما يتزكى لنفسه ونفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردها إليه .

الإيضاح

(يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) أى أنتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم ، فإياه فاعبدوا ، وإلى رضاه فسارعوا ، وهو الغنى عن عبادتكم وعن غيرها ، وهو المحمود على نعمه ، فكل نعمة بكم وبسواكم فهى منه ، فله الحمد والشكر على كل حال .

والخلاصة — أنتم فى حاجة إليه وهو ذو الغنى وحده لاشريك له ، والمحمود فى جميع ما يقول ويفعل ويشرع لكم ولغيركم من الأحكام .

ثم أرشد إلى غناه وإلى قدرته الكاملة بقوله :

(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى إن يشأ ربكم أن يهلككم أهلككم ، لأنه هو الذى أنشأكم من غير حاجة به إليكم ، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون عما نهاهم عنه ، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده ، بل هو يسير هيِّن عليه .

وليس بخاف ما فى هذا من تهديد ووعيد ، وزجر وتأنيب .

ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس وزْرها فحسْبُ ، ولا تنافى بين هذا وما جاء فى سورة العنكبوت من قوله سبحانه : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن هذا فى الضالين المضلين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم ، وكل ذلك آثامهم لا آثام غيرهم .

(وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) أى وإن تسأل نفس ذات ثقل من الذنوب ، من يحمل عنها ذنوبها ؟ لم تجد من يجيبها إلى ما تطلب ولو كان المدعو ذا قرابة لها كأب أو ابن، إذ كلٌّ مشغول بنفسه ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

ونحو الآية قوله : « لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

قال عكرمة : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بُنَىّ : أىّ والد كنت لك ؟ فيثنى خيرا فيقول له يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول يا فلانة : أىّ زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يجدى النصح والإنذار لدى من يخشون الله ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك ، بل لإيمانهم بما أتيت به وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك ، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك ، لا من طبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون — إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم ويقيمونها على ما رسمه الدين ،

فهى التى تطهر قلوبهم وتقربهم من ربهم حين مناجاتهم له كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة — إنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه دون من عداهم من أهل التمرد والعناد .

ثم حث على الأعمال الصالحة وأبان أن فائدتها عائدة إليهم فقال :

(ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) أى ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصى فنفع ذلك عائد إليه ؛ كما أن من يتدسى بالذنوب والآثام فضر ذلك راجع إليه ، وإلى الله مصير كل عامل وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جنى وأثّل لنفسه .

وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ (٢٠) وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

شرح المفردات

الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا : أى سلف ومضى ، ونذير : أى منذر ومخوف وهو النبى ، والبينات : أى المعجزات

الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والزبر : واحدها زبور وهو الكتاب ، النكير : الإنكار بالعقوبة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق الهدى وطريق الضلالة وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير ، والجاحد المعاند قسا قلبه ولم يستفد من هديه — ضرب مثلا به تنجلى حاليهما ، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعى ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال فى الدنيا والنار فى العقبى .

الإيضاح

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور) أى وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى ابتعث به نبيه صلى الله عليه وسلم والبصير الذى قد أبصر فيه رشده فاتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وصدقه وقبل عن الله ما ابتعثه به ، وما تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ولا الثواب والعقاب .

ثم ضرب مثلا آخر لهما فقال :

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله ، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه ومعرفة الهدى من الضلال وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر .

ونحو الآية قوله : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ » وقوله : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ » .

والخلاصة — إن المؤمن بصير سميع نيِّر القلب يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا وفى الآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم يمشى فى ظلمات لاخروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسموم ، وحميم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

ثم بين أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده فقال :

(إن الله يسمع من يشاء) أى إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها بخلق الاستعداد فيه للهداية .

ثم ضرب مثلا لهؤلاء المشركين وجعلهم كالأموات لايسمعون فقال :

(وما أنت بمسمع من فى القبور) أى فكما لاتقدر أن تسمع من فى القبور كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد ، لاتقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب لايستطيع معرفة الله ولا فهم كتابه وواضح حججه .

والخلاصة — كما لاينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها — كذلك هؤلاء المشركون لاحيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم .

ثم بين عمل الرسول فقال :

(إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر عقاب الله لهؤلاء المشركين الذين طبع على قلوبهم ، ولم تكلف هدايتهم وقبولهم ماجئتهم به ، فإن ذلك بيده تعالى لا بيدك ولا بيد غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك .

ثم بين سبحانه أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه ، بل بإذن ربه وإرادته وأنه ما جاء إلا بالحق فقال :

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بى وحدى ، وبالشرائع التى فرضتها على عبادى ، مبشرا بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عندى ، ونذيرا بعقاب من كذبك وردّ عليك ما أوحى به إليك .

ثم بين فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال فقال :

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وقال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

ثم سلى رسوله عما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب وأبان له أنه ليس ببدع من بين الرسل فقال :

(وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) أى وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس بما يفعلون ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة وبالكتب الواضحة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود ، وبعد أن سلاه هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال :

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى وبعد أن أتاهم الرسل بما أتوهم كذبوهم فيما جاءوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فانظر كيف كان شديد عقابى بهم وإنكارى عليهم ، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا فى عمايتهم حل بهم مثل ما حل بأولئك ، فتلك سنة الله لاتبديل لها ولا تغيير . « سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) .

شرح المفردات

ألوانها : أى من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها جدة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان فى الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها غربيب وهوشديد السواد ؛ يقال أسود غربيب وأبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، وفى الحديث « إن الله يبغض الشيخ الغربيب » يعنى الذى يخضب بالسواد ، وقال امرؤ القيس فى وصف فرسه :

العين طاحة واليدّ سابحة والرجل لاحقة والوجه غربيب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التى أعرض عنها المشركون عنادا واستكبارا ـ أردف ذلك ذكر مايرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

الإيضاح

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) يقول سبحانه منبها إلى كمال قدرته : ألم تشاهد أيها الرائى أنا خلقنا الأشياء المختلفة من الشىء

الواحد ، فأنزلنا الماء من السماء وأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وطعومها وروائحها كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) أى وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرابيب كما هو مشاهد ، وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضا .

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى وكذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل الحيوان الواحد قد يكون فيه ألوان مختلفة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

ولما عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لا يعرف ذلك حق المعرفة إلا العلماء بأسرار الكون العالمون بدقائق صنعه تعالى ، فهم الذين يفهمون ذلك حق الفهم و يعلمون شديد بطشه وعظيم قهره فقال :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخاف الله فيتقى عقابه بطاعته ـ العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء وأنه يفعل ما يريد ، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية أن يعاقبه .

وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : العالم بالرحمن من عباده ، من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله .

وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الآية .

وعن عائشة قالت : «صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فخطب فحمد الله ثم قال : مابال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ، أخرجه البخارى ومسلم .

ثم بين سبب خشيتهم منه فقال :

(إن الله عزيز غفور) أى إن الله عزيز فى انتقامه ممن كفر به ، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه ، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم : و إثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، ومن حق المعاقِب والمثيبِ أن يُخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) .

شرح المفردات

يتلون : أى يتبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها ، وقد ورد : «رُبَّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه» والمراد من التجارة المعاملة مع الله لنيل الثواب ، وتبور : أى تكسد .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه ـ أردف ذلك ذكر حال العالمين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة

و إيتاء الزكاة فى السر والعلن ، وأبان أن هؤلاء يرجون ثوابا من ربهم كفاء أعمالهم، بل أضعاف ذلك فضلا من ربهم ورحمة منه ، ويطمعون فى غفران زلاتهم ، لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل .

الإيضاح

إن الذين يتبعون كتاب الله ويعملون بما فرض فيه من فرائض ، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم ، ويتصدقون مما أعطاهم ربهم من الأموال سرا وعلانية بلا بسط ولا إسراف ـ هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه ، ويبتغون فضلا منه ورحمة فوق ذلك ، وغفرانا لما فرط من زلاتهم ، وما اجترحوا من سيئاتهم ؛ فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات ، الشكور لطاعاتهم ، فمجازيهم عليها الجزاء الأوفى .

ونحو الآية قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، مصدقا لما بين يديه : أى لما تقدمه من الكتب السماوية ، خبير بصير : أى محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أى عامل به تارة، ومخالف له أخرى، سابق: أى متقدم إلى ثواب الله راجٍ دخول جنته ، بالخيرات أى بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن الله : أى بتوفيقه وتيسيره، والحزَن : هو الخوف من محذور يقع فى المستقبل ، دار المقامة : أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبدا ، وهى الجنة ، نصب : أى تعب ، ولغوب : أى كلال وفتور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم ـ أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساما ثلاثة : ظالم لنفسه، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين ، وأنهم يدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار وأنهم يحلَّون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، ويقولون : إنه أحلنا دارا لا نصب فيها ولا تعب .

الإيضاح

(والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى إن القرآن الذى أنزلناه عليك هو الحق من ربك ، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع ما فيه ، دون غيره من الكتب التى أوحيت إلى غيرك ، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل على الرسل من قبله فصار إماما لها .

(إن الله بعباده لخبير بصير) أى إن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بما يصلح

لهم فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس فى كل زمان ومكان ، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة التى هى خير الأمم بشهادة الكتاب « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وجعلناهم أقساما ثلاثة :

(١) ظالم لنفسه مفرّط فى فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات .

(٢) مقتصد مؤدّ للواجبات تارك للمحرمات تقع منه تارة بعض الهفوات ، وحيناً يترك بعض المستحسنات .

(٣) سابق بالخيرات بإذن الله ، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

والخلاصة — إن الأمة فى العمل أقسام ثلاثة : مقصر فى العمل بالكتاب مسرف على نفسه . ومتردد بين العمل به ومخالفته . ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه .

وقال الحسن : الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته .

(ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لايقدر قدره .

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين بيّن جزاءهم ومآلهم بقوله :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) أى بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة ، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلئ ويكون لباسهم حريرا .

(وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) أى ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر ، وأراحنا مما كنا نتخوف من هموم الدنيا والآخرة .

ثم ذكر السبب فى ذهاب الحزن عنهم فقال :

(إن ربنا لغفور شكور) أى إن ربنا لغفور لذنوب المذنبين، شكور للمطيعين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

والخلاصة — إنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والوساوس الشيطانية .

ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتحليتهم بالحلى وإدخالهم الجنات — ذكر سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها فقال :

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) أى إن ربنا لغفور شكور ، لأنه أنزلنا الجنة التى لا تحوّل عنها ولا نقلة ، ولا يصيبنا فيها تعب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور .

والخلاصة — إنهم أتعبوا أنفسهم فى العبادة فى دار الدنيا فاستراحوا راحة دائمة فى الآخرة كما قال : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ؛ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) .

شرح المفردات

لايقضى عليهم : أى لايحكم عليهم بموت ثانٍ ، يصطرخون : أى يصيحون أشد الصياح للاستغاثة ، نعمركم : أى نمهلكم ، للظالمين : أى للكافرين ، نصير : أى معين يدفع عنهم العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن بين ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة فى دار السرور التى قال فى مثلها القائل :

علياء لاتنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سرّاء

أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وحبور لايدوم .

الإيضاح

(والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أى والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شموس الآيات وأنوار الدلالات ، لهم نار جهنم لايحكم عليهم فيها بموت ثان فيستريحوا من الآلام ، ولا يخفف عنهم العذاب فيها ، بل كلما خبت زيد سعيرها .

ونحو الآية قوله « وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» وقوله: « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.لَايُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» وقوله : « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » وقوله : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ثم بين أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه ، جاحد بوحدانيته فقال :

(كذلك نجزى كل كفور) أى وهكذا نكافئ كل جاحد لآلاء الله منكر لرسله ، فندخله نار جهنم بما قدم من سيئات فى الدنيا .

(وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى وهم يستغيثون ويضجون فى النار يقولون ربنا أخرجنا منها وأعدنا إلى دار الدنيا نطعك ونعمل غير الذى كنا نعمل من معصيتك ، وقد علم منهم أنه لو ردهم إلى هذه الدار لعادوا إلى ما نهوا عنه .

وحينئذ يقال لهم تقريعا وتوبيخا :

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفعون بالحق لانتفعتم به مدة عمركم ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم « فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » .

والخلاصة — إنه تعالى لايجيبكم إلى ما طلبتم ، لأنكم كنتم عصاة ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه .

روى أحمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه » .

(وجاءكم النذير) أى وجاءكم الرسول ومعه كتاب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم أمره وتركتم طاعته .

والخلاصة — إنه احتج عليهم بأمرين : طول العمر ، وإرسال الرسل .

ونحو الآية قوله: « وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ. قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

وقد استبان مما تقدم أنهم لايخرجون منها ، ومن ثم قال :

(فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء فى حياتكم الدنيا ، ولن تجدوا لكم ناصرا ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والسلاسل والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) .

شرح المفردات

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التى فى النفوس ، والخلائف : واحدهم خليفة ؛ وهو الذى يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقتا : أى بغضا واحتقارا ، خسارا : أى خسارة ؛ فالعمر كرأس مال إذا اشترى به صاحبه رضا الله ربح ، وإذا اشترى به سخطه خسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم — أردف ذلك ببيان أن الله محيط بالأشياء علماً ، فلو كان لهم نصير فى وقت مّا لعلمه .

إلى أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار ، وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلّدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات — أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ماهم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

الإيضاح

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) أى إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون فى أنفسكم وما تضمرون وما ستنوون أن تفعلوه ، وما هو غائب عن أبصاركم فى السموات والأرض ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله ، وتريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التى لا تنفعكم شيئا يوم القيامة .

ثم علل هذا بقوله :

(إنه عليم بذات الصدور) أى لأنه عليم بما تكنه السرائر ، وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .

وفى هذا إيماء إلى أنه لو مد أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبدا ، فلا مطمع فى صلاحهم .

ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب فقال :

(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى هو الذى ألقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فى الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة .

(فمن كفر فعليه كفره) أى فمن غمط مثل هذه النعمة العظيمة فإنما يعود وبال ذلك إلى نفسه دون غيره ، لأنه هو المعاقب لاسواه .

ثم فصل ذلك و بيَّنه بقوله :

(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) أى وكلما استمروا فى كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) أى وكلما اطمأنوا إليه خسروا أنفسهم يوم القيامة وحق عليهم سوء العذاب .

والتكرير للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين القبيحين على سبيل الاستقلال .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، شرك : أى شركة ، يمسك : أى يحفظ ، وتزول : أى تضطرب وتنتقل من أماكنها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض ـ أكد هـذا بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم إلى الاعتراف بوحدانيته وعدم إشراك غيره معه .

الإيضاح

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى أخبرونى أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان ـ أرونى أىّ جزء من الأرض أو من الأناسى والحيوان خلقوا حتى يستحقوا الإلهية والشركة .

والخلاصة — أعلمتم هذه الآلهة ما هى ؟ وعلى أى حال هى ؟ فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة ، فكيف تعبدونها ، وإن كنتم توهمتم فيها القدرة فأرونى أثرها ؟ .

(أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله فى خلق السموات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم .

(أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟) أى أم هناك كتاب أوتوه ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا .

وخلاصة ما تقدم — أخبرونى عمن تعبدونهم من دون الله ، هل استبدوا بخلق شىء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله ، أولهم شركة معه فى خلق السموات ، وآتيناهم برهانا بهذه الشركة .

الخلاصة : إن عبادة هؤلاء إما بدليل من العقل ، ولا عقل يحكم بعبادة من لايخلق شيئا ، وإما بدليل من النقل ، وإنا لم نؤت المشركين كتابا فيه الأمر بعبادة هؤلاء .

وبعد أن نفى ما نفى من الحجج أضرب عنه بأن الذى حملهم على الشرك هو تقرير السلف للخلف وإضلال الرؤساء للأتباع وقولهم لهم : إن هؤلاء شفعاء يشفعون لهم عند الله إذا هم عبدوهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك آراء أسلافهم وضُلَّالهم ، وما هى إلا غرور وأباطيل .

ولما أبان حقارة الأصنام أرشد إلى عظمته تعالى فقال :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى إن الله يمنع السموات أن تضطرب من أماكنها ، فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض من مثل ذلك ، ويحفظهما برباط خاص ، وهو مايسميه العلماء نظام الجاذبية ، فجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجرى فى مدارات خاصة بهذا النظام الذى وضع لها ، ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت عن أماكنها ، لكنها به ثبتت فى مواضعها واستقرت فى مدارتها .

(ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى وإن أشرفتا على الزوال ما استطاع أحد أن يمسكهما من بعد الله .

والخلاصة — إنه لايقدر على دوامهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » .

(إنه كان حليما غفورا) ومن ثم حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم على عظيم جرمهم المقتضى تعجيل العقوبة لهم .

والخلاصة — إنه يحلم ويُنظر ، ويؤجل ولا يعجل ، ويستر ويغفر .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) .

شرح المفردات

وأقسموا : أى حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، نذير : أى رسول ، أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أو النصارى ، نفورا : أى تباعدا عن الحق ، مكر السيئ : أى المكر السيئ الذى فيه خداع وكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يحيق : أى ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام وبكتهم على هذا أشد التبكيت وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ،

أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا، فقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء ، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذى لامحيص منه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم ، وسنته لاتبديل فيها ولا تحويل .

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُن أهدى من إحدى الأمم) أى وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان وبالغوا فيها أشد المبالغة : لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم بأسه ، ليكونن أسلك لطريق الحق وأشد قبولا له من أى أمة من الأمم التى خلت من قبلهم .

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء) أى ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية ، فما زادهم مجيئه إلا بعدا من الإيمان بالله وانصرافا عن الحق واستكبارا عن اتباع آيات الله ، ومكروا بالناس مكرا سيئا فصدوهم عن سبيل الله .

والخلاصة — إنه تبين أنه لاعهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس ، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق ، وصار مثلهم مثل الإبل التى نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها .

ثم بين أن عاقبة مكرهم عادت عليهم بالوبال بقوله :

(ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أى ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

روى الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لاتمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله يقول : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا

فإن الله سبحانه يقول : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثا فإن الله يقول : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » .

وقد وقع مثل هذا فى كلام العرب فقد قالوا: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًّا.

والعبرة فى الأمور بالعواقب ، والله يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة ، فإن لم يجاز الماكر فى هذه الدار فسيلقى الجزاء فى الآخرة « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ؟ » .

ثم هددهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من العذاب فقال :

(فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك إلا أن أحل بهم من نقمتى على شركهم بى وتكذيبهم رسولى ـ مثل ما أحللت بمن قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا رسلهم .

ثم علل انتظارهم للعذاب وتهديدهم به بقوله :

(فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى وهذه سنة الله فى كل مكذب فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحوّل العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد المشركين بجريان سنة الله فيهم بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم - نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعُدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لايعجزه شىء إذا أراده .

ثم ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنساناً يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

الإيضاح

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟) أى أو لم يسر هؤلاء المشركون بالله فى الأرض التى أهلكنا فيها أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا ، أثناء رحلاتهم التى يسلكونها إلى طريق الشام فى تجاراتهم ، فينظروا كيف كانت عاقبتهم - ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم فيتعظوا بهم وينزجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام ؟

ثم بين أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فهم لايفلتون من عقابه فقال :

(وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض) أى ولن يعجز الله هؤلاء المشركون به المكذبون لرسوله فيسبقوه هربا وينجوا من الهلاك إذا هو أراد ذلك بهم ، لأنه لايعجزه شىء يريده فى السموات ولا فى الأرض .

وغير خافٍ ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد لهم .

ثم علل عدم عجزه عن شىء فيهما بقوله :

(إنه كان عليما قديرا) أى إنه تعالى عليم بمن يستحق أن يعجل له العقوبة ، ومن قد تاب وأناب إلى ربه ورجع عن ضلالته ، قدير على الانتقام ممن شاء منهم ، وعلى توفيق من أراد الإيمان .

ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء فيقولون « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » بيّن أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا ، لعلهم ينيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه ، ويتوب إلى رشده فقال :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهر الأرض نسمة تدب لشؤم المعاصى التى يفتنون فيها .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل حدده عنده لا يقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه .

(فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) أى فإذا حل الأجل فإن الله يجازى المكلفين بما عملوا من خير أو شر ، لا يخفى عليه شىء من أمرهم ، دقّ أو جلّ ، ظهر أو بطن .

اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها ، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير .

مجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

(١) الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنه المنعم المتفضل .

(٢) تذكير الناس بالنعم ليشكروها .

(٣) تثبيت فؤاد رسوله بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين .

(٤) نداء الناس عامة بأن يتحلوا بالفضائل ، و يتخلوا عن الرذائل ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، و ينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات فى الأرض والسموات .

(٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين ، و إيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة .

(٦) تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين ، وصالحين متقين ، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساما ثلاثة .

(٧) وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين وما يلقاه كل منهما يوم القيامة .